نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز
لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)
(دراسة وصفية)

Nihayat Al-Ijaz fi Drayat Al-Ijaz By Fakhruddine Al-Razi (D606h), A Descriptive Study

عبد الرحمن إسماعيل خليل التميمي

الدكتور في مديرية تربية الكرخ الأولى - وزارة التربية - العراق -

Abdulrahman Ismael Khaleel Altameemi

Dr. At - Karkh\1 Directorate Of Education -

Ministry Of Education - Iraq

dr.abdulrahmman@gmail.com

الملخص

قد توافر علماؤنا على خدمة القرآن الكريم جيلاً بعد جيل، ومنهم الإمام الفخر الرّازيّ ليضع كتاب **(نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)**، والذي دعاهُ إلى تأليفه هو شرف العلم ورفعته، وإثبات إعجاز القرآن وفصاحته. في حين كادت تختفي وتطوى جهوده اللغوية والبلاغية؛ لأنّه عُرف مفسراً ومفكراً مبدعاً. ولكن لكتابه البلاغي الدّور الكبير في بناء علم البلاغة.

فلأهمية هذا الكتاب، ومكانته، ودوره في تطوّر علم البلاغة وبنائه، قمتُ بدراسته دراسة وصفية.

فكان عنوان البحث: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز لفخر الدّين الرّازيّ (ت ٦٠٦هـ) دراسة وصفية) ليقف هذا البحث على ترجمة موجزة للرازيّ، ثمّ تبدأ مباحثه الثّلاثة، الأوّل في هدف الرّازيّ من التّأليف، وسببه، ومنهجه، والثّاني أسلوب الرّازيّ في الكتاب، ونظمه، وأثره فيمن جاء بعده، وشواهده، وأهم مصادره، وتبويبه، والمبحث الثّالث دراسة نموذجية لباب الكناية، وازنت فيه بين الرّازيّ ومن قبله وبعده.

ليثبت البحث أن الكتاب يُعد من الكتب البلاغية المتقدّمة بلا نزاع بين أهل العلم، ولا يختلف كثيراً عن كتب الجرجانيّ، ولم أرَ في كلام أحدٍ من المتقدمين أو المتأخرين مَن يُقدِّم عليه كتاباً في هذا الفنّ سوى كتب عبد القاهر. بل نجد في أكثر من موطن من يذكره مع كتب عبد القاهر لحفظه أبواب البلاغة بشكلها الرّتيب.

* * *

Abstract

Many generations of scholars have made a great effort to serve the Noble Qur'an, including Imam Al-Fakhr Al-Razi who wrote the book (Nihayat Al-Ijaz fi Drayat Al-Ijaz), authored this book because he appreciates the knowledge and to prove the miracle and eloquence of the Qur'an. Imam Al-Razi is known as an interpreter and a creative thinker. Therefore, in this book, his linguistic and rhetorical efforts nearly disappeared. However, his rhetorical book had a great role in building the science of rhetoric. Because of the importance of this book, its stature, and its role in the development and construction of the science of rhetoric, I studied it in a descriptive study.

The title of the research was: (Nihayat Al-Ijaz fi Drayat Al-Ijaz By Fakhruddine Al-Razi (D 606h), A Descriptive Study) so that this paper is based on a brief translation of al-Razi, then its three sections begin with Al-Razi's goal of authorship, the reason, and the method. The second section is about the style of al-Razi in the book, the composition, the evidence, the most important sources, the classification, and the impact on who came after. Finally, the third study is an exemplary study of the euphemism in which it compared between Al-Razi and the people before and after him.

The research proves that the book is one of the advanced rhetorical books without dispute among scholars, and it does not differ much from the books of Al-Jarjani. Moreover, I did not see anyone prefer another book in this art except the books of Abd al-Qaher. However, we find in more than one place someone who mentions him, along with Abd al-Qaher's books, for keeping the categories of rhetoric in its monotonous form.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله الذي فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين، وآتانا به ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، أنزلهُ هداية وجعله للشرائع السَّماوية خاتمة، ثمّ جعل له من نفسه حجّة على الدَّهرِ قائمة.

والصَّلاة والسَّلام على مَن كان خلقهُ القرآن، ووصيتهُ القرآن، وميراثهُ القرآن، القائل: «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه». وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطّيبين الطَّاهرين الأبرار وبعد.

فقد عنيت اللغة العربية بالقرآن الكريم المبين، كتابها الأوحد، وحارسها الخالد الأمين. وممّا لاشكّ فيه أنّ القرآن الكريم كتاب العربية الأوَّل في متانة الأسلوب، وسمو المعنى، وقوّة الدّلالة، ومثّل نَصُّه الخالد بحراً زاخراً في الظَّواهر اللّغوية، والقضايا النّحوية، والأساليب البلاغية.

وقد توافر علماؤنا على خدمة القرآن الكريم جيلاً بعد جيل، ومنهم الإمام الفخر الرَّازيّ الذي اعتنى باللغة العربية وكتابها المجيد، فقد ألّف عدّة مؤلفات في ذلك، منها التّفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، وفي بلاغة القرآن وفصاحته نجده وضع كتاب (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، والذي دعاهُ إلى تأليفه هو شرف العلم ورفعته وإثبات إعجاز القرآن وفصاحته.

في حين كادت تختفي وتطوى جهوده اللغوية والبلاغية؛ لأنّه عُرف مفسراً ومفكراً مبدعاً في كثير من علوم عصره.

ولكن لكتابه البلاغي الدّور الكبير في بناء علم البلاغة. فلأهميّة هذا الكتاب، ومكانته، ودوره في تطوير علم البلاغة وبنائه، قمتُ بدراسته دراسة وصفيّة.

فتطرقتُ في بداية البحث عن صاحب الكتاب الفخر الرَّازيّ، وتكلمت بشكل موجز عن حياته، وأهمّ شيوخه، وتلامذته، وآثاره، ثمّ ذكرتُ وفاته. ثمَّ جاء المبحث الأوّل فبيّنت فيه هدف الرَّازيّ من التّأليف البلاغي، وسبب تأليفه لهذا الكتاب، ومنهجه في تقسيم الموضوعات البلاغية.

ثمَّ وقفت عند المبحث الثاني وهو عمدة البحث فوضَّحتُ فيه أسلوب الرَّازيّ في كتابه، فتكلمت عن نظمه، وأثره فيمن جاء بعده، وشواهده، وأهمّ مصادره، وتبويبه.

وجاء المبحث الثَّالث ليختم هذه الدّراسة بدراسة نموذجية عن الكتاب في باب الكناية، ووازنتُ بين الرَّازيّ ومن قبله وبعده في موضوع الكناية، واعتمدت في بحثي على المصادر التي استفاد منها الفخر الرَّازيّ، ثمّ ختمت بحثي بأهمِّ ما توصل إليه.

أسال صاحب الإعجاز القبول فيما بينته بإيجاز، وله الحمد في الأولى والآخرة، ثمّ الصّلاة على نبي الأنصار والمهاجرة.

التَّمهيد
حياة الرَّازيّ وآثاره

ولد الإمام الرَّازيّ في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين، وقيل: أربع وأربعين وخمسمائة[١].

وقد تجمع كتب التّراجم على أن الفخر الرَّازيّ كان من أكبر المفكرين الإسلاميين ظهر بعد الإمام الغزاليّ، وقد عدّه بعضهم بأنّه رأس المائة السّادسة للهجرة[٢]، مستشهدين بحديث رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[٣].

وأطلق عليه آخرون ألقاباً ونعوتاً كلها ذات فخر ودالّة على جلالة قدره ومقامه، فقد وصفوه بأنّه: «كان -رحمه الله- فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيراً من العلوم ونبغ فيها، فكان إماماً في التّفسير والكلام، والعلوم العقليّة، وعلوم اللّغة، ولقد أكسبه نبوغه العلميّ شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرِّحال من مختلف الأقطار»[٤].

كما وصفه آخرون بأنه شيخ الإسلام، والمولى الإمام، ومن لقب إلى آخر ظلّ الإمام فخر الدِّين عند الجميع[٥].

تربَّى في كنف أبيه ضياء الدِّين (عُمر)، وأخذ عنه العلم، يقال أنه حفظ (الشّامل) في علم الكلام لإمام الحرمين، وكان في بداية مشواره فقيراً، أخذ من العلوم ما أخذه ومهر في كثير منها، وله عدّة مؤلفات تختلف في الفنون، كما له مناظرات مشهورة مع المعتزلة وغيرهم[٦].

إسمه:

هو: «محمّد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن عليّ. الإمام العلّامة فريد دهره ونسيج وحده فخر الدّين أبو عبد الله القريشيّ التّيميّ البكريّ الطّبرستانيّ الأصل الرَّازيّ المولد، ابن الخطيب الرَّي الشّافعيّ الأشعريّ»[٧].

شيوخه:

نشأ الفخر الرَّازيّ وهو يقبل على العلوم والمعارف المختلفة، فأخذ العلم من أبيه إلى أن مات، ثم انتقل إلى كمال السّمنانيّ، واشتغل

(١) ينظر: طبقات الشَّافعيّة: ٨/ ٨٥. ووفيات الأعيان: ٤/ ٢٥٢.
(٢) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، مقدّمة المحقق: ٧.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة ﷺ: ٢/ ٥١٢.
(٤) التّفسير والمفسرون: ٤/ ٥٢.
(٥) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، مقدّمة المحقق: ٧.
(٦) ينظر: طبقات الشَّافعيّة: ٨/ ٨٢، ووفيات الأعيان: ٤/ ٢٤٩.
(٧) الوافي بالوفيات: ٤/ ١٧٥. وينظر: طبقات الشَّافعيّة: ٨/ ٨١، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، مقدّمة المحقق: ٨، وقد أسقط د. بكري الشيخ أمين من اسمه (بن الحسن).

عليه مدّة، وجاء بالفقه منه، كذلك عن المجد الجيليّ، وهو من أصحاب محمّد بن يحيى، فأخذ منه علم الكلام والحكمة، في حين أخذ من والده عُمر بعض التّفسير، فقد قال الفخر في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ (١): «وسمعت الشّيخ الإمام الزّاهد الوالد-رحمه الله- يقول: لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب»(٢).

ويقول في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (٣) : «كان الشّيخ الوالد ضياء الدّين عُمر -رحمه الله- يقول: الرّضا عبارة عن ترك اللّوم والاعتراض، وليس عبارة عن الإرادة»(٤).

تلامذته:

ممّا لاشكّ فيه أن الفخر الرّازيّ كان مرسى سفن العلم، جمع من العلوم ما جمع، فارتفع بها وهو «بحر ليس للبحر ما عنده من الجواهر، وحبرٌ سما على السّماء وأين للسّماء مثل ما له من الزّواهر، وروضةُ علم تستقل الرّياضُ نفسها أن تحاكي ما لديه من الأزاهر»(٥).

فصاحب هذه العلوم لا يترك في بلده إلا ووضع له مجلس، فكان يجلس في كل بلده يقبل عليها ويأتيه الفقهاء والأمراء يسألونه، وهو يجيب أجمل جواب، فكان يعظُ باللِّسانين العربيّ والفارسيّ وعندما كان في مدينة هراة وضع له مجلس فكان يحضره أرباب المذاهب يسألونه وهو يجيب، وكان يلقب عندهم (شيخ الإسلام)(٦).

وكان إذا جلس أحاط به نحو ثلاثمائة طالب يسألونه في علوم مختلفة، منهم علم الكلام، وآخر في الفلسفة والكيمياء والطّبِّ، وكان له في الفقه وأصوله الحظّ الوافر، والنَّحو والأدب وغير ذلك(٧).

فكان العلماء يقصدونه- رحمه الله- من كلِّ حدبٍ وصوبٍ لتلقي العلم منه.

آثاره:

إن جميع الباحثين والمؤرخين الذين تحدثوا عن فخر الدِّين الرَّازيّ لم ينسوا مؤلفاته العظيمة، فقد أورد له المؤرخون مؤلفاته سواء المطبوعة منها أو المخطوطة.

أما المطبوعة فمنها(٨):

١- مفاتيح الغيب (التّفسير الكبير): طبع بالمطبعة الأميريّة ١٢٨٩هـ.

(١) سورة الأنعام: ١٠٢.
(٢) مفاتيح الغيب: ١٣/ ١٢٩.
(٣) سورة الزّمر: ٧.
(٤) مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٢٤٧.
(٥) طبقات الشَّافعيّة: ٨/ ٨٢.
(٦) ينظر: وفيات الأعيان: ٤/ ٢٤٩.
(٧) ينظر: طبقات الشَّافعيّة: ٨/ ٨٧، ونهاية الإيجاز مقدّمة المحقق: ١١.
(٨) ينظر: طبقات الشَّافعيّة: ٨/ ٨٧، ونهاية الإيجاز مقدّمة المحقق: ١٦.

٢- معالم أصول الدِّين: مطبوع على هامش المُحصّل.

٣- لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى وصفاته: طبع بمكتبة الكليات الأزهريّة.

٤- مُحصّل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين: طبع بالمطبعة الحسينيّة- القاهرة ١٣٢٣هـ.

٥- المسائل الخمسون في أصول الكلام: طبع في مطبعة كردستان العلمية- القاهرة ١٣٢٨هـ.

٦- المحصول في علم أصول الفقه: مطبوعات جامعة الإمام محمّد بن سعود- الرّياض ١٤٠١هـ.

٧- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: مطبعة المؤيد والآداب- القاهرة ١٣١٧هـ.

٨- مناظرات الفخر الرَّازيّ: المطبعة الكاثوليكية- بيروت ١٩٦٧م.

٩- كتاب الأربعين في أصول الدّين: مطبعة مجلس دائرة المعارف- حيدر آباد الدّكن ١٣٥٣هـ.

١٠- أساس التّقديس (في علم الكلام): مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ- القاهرة ١٣٥٤هـ.

١١- شرح قسم الإلهيات من الإشارات لابن سينا: المطبعة الخيريَّة- القاهرة ١٣٢٥هـ.

١٢- عصمة الأنبياء: المطبعة المنيريَّة- القاهرة ١٣٥٥هـ.

١٣-المباحث الشّرقيّة: حيدر آباد الدّكن ١٣٤٣هـ.

١٤- لباب الإشارات: مطبعة السَّعادة- القاهرة ١٣٢٦هـ.

١٥- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: مكتبة النّهضة المصريّة- القاهرة ١٩٣٨م.

١٦- الفراسة: مطبوع في باريس ١٩٣٩م، مع ترجمة إلى الفرنسيّة د يوسف مراد.

١٧- مناقب الإمام الشّافعيّ: مطبوع في القاهرة ١٢٧٩هـ.

وأمّا المخطوط فمنها:

١- الآيات البينات في المنطق: مخطوط مصور في معهد المخطوطات باستانبول ٣٢٢٤.

٢- أسرار التّنزيل وأنوار التّأويل: مخطوط محفوظ في دار الكتب المصريّة- توحيد ٥٧٢.

٣- أسرار القرآن: مخطوط محفوظ في دار الكتب المصريَّة مجاميع تيمور ٢٥٨.

٤- الإشارة في علم الكلام: مخطوط مصوّر معهد المخطوطات، التَّوحيد ٢٠، استانبول ٣/٥١٩.

٥- الجدل والكاشف عن أصول الدَّلائل وفصول العلل: مخطوط مصوَّر باستانبول ٥١٩/ ٣.

٦- النّهر المكتوم في مخاطبة الشَّمس والقمر والنُّجوم: مخطوط مكتبة الأوقاف في حلب ١٣٤١.

٧- شرح عيون الحكمة لابن سينا: دار الكتب المصريّة ٣٩١٦.

٨- رسالة في علم الهيئة: دار الكتب الظاهريّة- دمشق ٥٤٣٣.

٩- رسالة في فائدة الزّيادة: دار الكتب الظاهريّة- دمشق ٥٤٣٣.

١٠- المطالب العالمية: دار الكتب المصريّة، عقائد تيمور ٩.

١١- المعالم في أصول الفقه: مكتبة الأزهر، الأصول ١٢٧.

١٢- الملخص في الحكمة والمنطق: معهد المخطوطات- استانبول ٣٢٢٤.

١٣- نهاية العقول في دراية الأصول: دار الكتب المصريّة، توحيد ٧٤٨.

فهذه أهم الكتب التي وردت عن الإمام الرَّازيّ في كتب المؤرخين، والمتتبع لهذه الكتب يجدها في علوم مختلفة، فيجد بعضها في التّفسير وأخرى في اللّغة والفقه والنّحو وعلم الكلام، ومن العلوم الأخرى التي اشتهر بها الفخر الرَّازيّ.

وفاته:

توفي الإمام في يوم الاثنين وكان عيد الفطر، أي: في شهر شوال من سنة (٦٠٦هـ)، وذكر المؤرخون أنه توفي بمدينة هراة، كما كان يوصي بأن يبالغ في إخفاء قبره خشية أن ينبشه الكراميّة ثأراً منه، كما قيل أنهم فرحوا بموته، فدفن آخر النّهار في جبل بالقرب من مدينة هراة يقع في قرية تسمى (مُزْدافان)، وقد خلّف -رحمه الله- وَلدين، وثمانين ألف دينار سوى الدّواب والعقار[١].

المبحث الأوّل
التّأليف البلاغيّ عند الرَّازيّ

هدف الرَّازيّ من التّأليف البلاغي:

إن الأسباب التي جعلت الفخر الرَّازيّ يخوض في علم البلاغة واضحة بيَّنها في مقدمته، بعد أن بيّن شرف هذا العلم ورفعته، وفضله على سائر العلوم فقال: «فإن أحق الفضائل بالتّقديم، وأسبقها في استيجاب التّعظيم، العلم الذي لا شرف إلا وهو السّبيل إليه، ولا خير إلا وهو الدّليل عليه، ولا منقبة إلا وهو ذروتها وسنامها ... لاسيما العلم الذي هو أرسخ العلوم أصلا، وأسبقها فرعاً وفصلاً، وأكرمها نتاجاً، وأنورها سراجاً، وهو علم البيان»[٢].

ويذكر أيضاً سبباً آخراً للتأليف البلاغيّ فقال: «ثمّ مع ما لهذا العلم من الشّرف الظّاهر، والنّور الزّاهر، فالنّاس كانوا مقصرين في ضبط معاقده وفصوله، متخبطين في إتقان فروعه وأصوله، معتقدين فيه اعتقادات حائدة عن منهج الصّواب والسّداد، زائفة عن طريق الحقّ والإرشاد»[٣]. فهذا سبب آخر دعاه إلى التّأليف البلاغيّ.

---

(١) ينظر: وفيات الأعيان: ٤/ ٢٥٢، و الوافي بالوفيات: ٤/ ١٧٨، وطبقات الشّافعيّة: ٨/ ٩٣.

(٢) نهاية الإيجاز: ٧٢.

(٣) نهاية الإيجاز: ٧٣.

فانطلق من هذه الدّوافع كي يضع لنا كتاباً في علم البلاغة، مستعيناً بالله ومن ثمّ بعلمه، ولم ينسَ دور الجرجانيّ عبد القاهر بن عبد الرّحمن (ت٤٧١هـ)، بل نسب له الفضل في استخراج هذا العلم واستعان بمؤلفاته (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز) كثيراً، فلا نجد باباً إلا وقد أخذ من الجرجانيّ شيئاً، قال: «واستمر استئناس النّاس بهذا الوسواس إلى أن وفق الله الإمام، مجد الإسلام، عبد القاهر بن عبد الرّحمن النّحويّ الجرجانيّ- تغمده الله برحمته، وأفاض عليه عيون مغفرته- حتى استخرج أصول هذا العلم وقوانينه، ورتّب حججه وبراهينه»[١].

فبعد اطّلاعه على كتب الجرجانيّ جاءته الفكرة في تطوير هذا العلم وتنسيق الموضوعات، قال: «ولـمَّا وفقني الله تعالى لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما، ومقاصد فرائدها، وراعيت التَّرتيب مع التَّهذيب، والتَّحرير مع التَّقرير، وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب بالتَّقسيمات اليقينيَّة، وجمعت متفرقات الكلم في الضّوابط العقلية، مع الإجناب عن الإطناب المملّ، والاحتراز عن الاختصار المخلّ، وسمّيته (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)»[٢].

والذي يدقق كلام الرَّازيّ يجد أنه اعتمد في كتابه (نهاية الإيجاز) على كتابي عبد القاهر، وقام بتلخيص وتنظيم ما جاء فيهما، مستعيناً بالله ومن ثمّ بعلمه، وما جاء في كتاب الرّمانيّ (النّكت في إعجاز القرآن)، وما جاء في كتاب الزّمخشريّ (الكشّاف).

ولكن هل أهمل الفخر الرَّازيّ من سبق الجرجانيّ بالتّأليف البلاغيّ كالجاحظ (ت٢٥٥ هـ) في كتابه (البيان والتّبيين)، والمبرَّد (ت٢٨٥هـ) في : (رسالة البلاغة) و(الكامل)، وابن المعتز (ت٢٩٦هـ) في (البديع)، وأبي هلال العسكريّ (ت٣٩٥هـ) في (الصّناعتين)؟

قال مُحقق الكتاب بكري الشّيخ أمين: «ونستطيع أن نذكر -مطمئنين- أسماء عدد من العلماء، أورد الرَّازيّ ذكرهم ... إبراهيم النّظام، ... وعلي بن عيسى الرّمانيّ، ... الخليل بن أحمد، ... أحمد بن يحيى الشّيبانيّ المعروف بثعلب، ... وذكر كذلك سيبويه، ... وأورد اسم الحريريّ، ... أورد اسم جار الله الزّمخشريّ ... أورد ذكر القاضيّ، ولعله عبد الجبّار الهمدانيّ، ... أما غير هؤلاء فلم يبين الرَّازيّ لهم أثراً»[٣] .

فنرى أن المُحقق الكريم لم يذكر الجاحظ والمبرّد وغيرهم، فنعود إلى التّساؤل الذي طرحناه هل أغفل الفخر الرَّازيّ ينابيع البلاغة؟

(١) نهاية الإيجاز: ٧٤.
(٢) نهاية الإيجاز: ٧٥.
(٣) نهاية الإيجاز: ٦٢.

المُدقق لكتاب الرَّازيّ يقف على نصوص مهمة تبيّن إحاطة الرَّازيّ بموضوعه، ومصادر هذا الموضوع، ومن هذه النّصوص ما نقله عن:

(الجاحظ)، قال الفخر الرَّازيّ في أقسام النّظم: «اعلم أن الجمل الكثيرة نظمت نظماً واحداً، ... ومثاله قول الجاحظ: جنّبك الله الشّبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعروف نسباً»(١). فقد اقتبس الرَّازيّ هذا القول من كتاب الحيوان للجاحظ وأشار إليه.

(المبرَّد)، قال الرَّازيّ في باب التّشبيه: «فمن لطيف ما جاء فيه، قول الأخطل في صفة مصلوب:

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ
يَومَ الوَدَاعِ إِلَى تَوْدِيْعِ مُرْتَحَلِ
أَو قَائِم من نُعاس فِيهِ لُوثَتُهُ
مُوَاصِلٌ لِتَمَطِّيْهِ مِنَ الكَسَلِ(٢)

وأشار للبيت من كتاب (الكامل) للمبرَّد(٣). وأمثلة اقتباسه من مؤلفات من سبقه كثيرة، وعليه فقد أمعن الرَّازيّ النّظر في مصنفات من سبقه وانتفع منهم، وذكرهم وأشار إليهم(٤)، إلا أنّ جُلّ اعتماده كان على كتابي عبد القاهر؛ لتخصصهما في ميدانه.

منهجه في تقسيم الموضوعات البلاغية:

ممّا لا شكّ فيه أن البلاغة ازدهرت في عصر عبد القاهر الجرجانيّ- رحمه الله-، وجاء بعده الفخر الرَّازيّ ووضع كتابه مُلخصاً ومُضيفاً إلى ما جاء في كتابي الجرجانيّ.

ويرى بعض المؤرخون أن الفخر الرَّازيّ قد أدّى إلى تجميد علم البلاغة، ولم يكن عمله هذا إلّا تلخيصاً لما جاء به الجرجانيّ، وما أضاف الرَّازيّ إلا تعقيداتٍ بشيء من الفلسفة، فقد قال الدّكتور شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطوّر وتاريخ: «وهذه الظَّاهرة نفسها من التّكرار ومن إجداب العقول، ومن الجمود، نجدها تسري بين أصحاب البلاغة بعد عبد القاهر والزَّمخشريّ، فإذا هم لا يأتون بجديد في مباحثهم البلاغية، وإذا هم يقصدون عملهم فيها على تلخيص ما كتباه جميعاً. وقد لا يوسع الملخص منهم ثقافته بقراءة كشّاف الزّمخشريّ، فيكتفي بتلخيص عبد القاهر، وهم سواء لخصوه وحده أو لخصوا معه الزَّمخشريّ قلَّما أضافوا جديداً إلا تعقيدات شتَّى ممَّا قرأوه في الفلسفة والمنطق. وبذلك تحجرت قواعد البلاغة وتجمَّدت»(٥).

فهل حقّا أنّ الرَّازيّ لم يضف إلى البلاغة إلا تعقيدات؟ وهل اكتفى بتلخيص عمل الجرجانيّ؟

يمكننا أن نقول أن هذا الاعتقاد يمكن أن يهجم على قارئ (نهاية الإيجاز) في الوهلة

(١) نهاية الإيجاز: ٢٨٣. وينظر: الحيوان: ١/ ٧.
(٢) نهاية الإيجاز: ٢٢٧. والأبيات للأخيطل الأحوازيّ. ينظر: ربيع الأبرار: ٤/ ١٢٨، والإيضاح في علوم البلاغة: ٢١٩.
(٣) ينظر: الكامل: ٣/ ٤٩.
(٤) ينظر: نهاية الإيجاز: ٢٤٨، ٢٧١، ٢٩٧، ٣٠٨.
(٥) البلاغة تطور وتاريخ: ٢٧٢.

الأوْلى، ويمكنه أن يقول: إنَّه قد جمَّد البلاغة، ولكن بعد إمعان النَّظر والتَّدقيق في هذا الكتاب نجد الشَّيء الطَّيب. وذلك لأنَّه يحوي على:

١- ثلاث مقدِّمات مختلفة:

الأولى: تكلَّم بها بعد حمد الله والصّلاة على رسول الله ﷺ عن شرف هذا العلم، ومكانته بين سائر العلوم، وفضله(١).

الثّانية: قال: «إنّ القران معجز، وإنّ الإعجاز في فصاحته»(٢). فبيّن دور البلاغة وأهميتها في إعجاز القرآن وفصاحته.

الثّالثة: بيّن شرف علم الفصاحة، ومن أين أتت الفصاحة، وجمالية الكلام تنبع من فنون البلاغة(٣).

٢- ثمّ تكلَّم عن الدّلالة اللفظيَّة، فجاء ببابين في أربعة عشر فصلاً(٤).

٣- ثمّ تكلَّم عن أحكام الدّلالات المعنويَّة، فجاء بخمس قواعد:

الأوْلى: تكلَّم عن أحكام الخبر، وفيها ستة عشر فصلاً(٥).

الثّانية: في الحقيقة والمجاز، فيها أربعة عشر فصلاً(٦).

الثَّالثة: في التَّشبيه، وفيها ستة وعشرون فصلاً بأربعة أبواب(٧).

الرَّابعة: في الاستعارة، وفيها أربعة عشر فصلاً، بثلاثة أبواب(٨).

الخامسة: في الكناية، وفيها ثلاثة فصول(٩).

٤- ثم جاء للنظم، الحظّ الوافر من كتابه، فذكر فيها ثلاثة وثلاثين فصلاً بستة أبواب(١٠).

فبعد هذا العرض المفهرس لكتاب الفخر الرَّازيّ، نرجع فنقول: هل الإضافة كانت مجرد تعقيدات فلسفيَّة؟ وهل أساء الرَّازيّ لكتابي الجرجانيّ؟

نقول: إن هدف الرَّازيّ من التَّأليف كان إثبات فصاحة القرآن وبيانها، وفي سبيل هذا الإثبات درس اللَّفظة المفردة من جوانب مختلفة، ثمّ درسها وهي داخل الجملة، ثمّ عاد ليدرس الدّلالة المعنويّة للكلمة والكلام المركَّب، ثمّ درس نظم الكلام والصُّور المختلفة له، ودور هذه الصُّور في تركيب الفصاحة ودقّة التّعبير، ثم انتهى بإثبات علمي وعقلي عن فصاحة القرآن(١١).

فهل إثبات إعجاز القرآن وفصاحته بطرق عقليَّة وعلميَّة فلسفة وتعقيدات؟!

(١) ينظر: نهاية الإيجاز: ٧١.
(٢) نهاية الإيجاز: ٧٨.
(٣) ينظر: نهاية الإيجاز: ٨٣.
(٤) ينظر: نهاية الإيجاز: ٨٧.
(٥) ينظر: نهاية الإيجاز: ١٤٨.
(٦) ينظر: نهاية الإيجاز: ١٦٧.
(٧) ينظر: نهاية الإيجاز: ١٨٨.
(٨) ينظر: نهاية الإيجاز: ٢٣١.
(٩) ينظر: نهاية الإيجاز: ٢٧٠.
(١٠) ينظر: نهاية الإيجاز: ٢٧٧.
(١١) ينظر: نهاية الإيجاز: ٤٤.

وكأن دراسة الفخر الرَّازيّ كانت دراسة في (علم النّص) الحديث، فهو يقر بدراسة اللفظة المفردة ثمّ دراسة الجملة، ثم دراسة الجمل مع بعضها، وينتهي بدراسة النّص بأكمله كوحدة نصيّة واحدة[١].

وأقلّ ما يمكنني قوله أنني تتبعت أبواب الكتاب ولم أجد فيها أيّ دليل على كلام شوقي ضيف، ففي باب البلاغة مثلاً يقول: «البلاغة: بلوغ الرّجل بعبارته كُنهَ ما في قلبه، مع الاحتراز عن الإيجاز المخلّ والإطالة المملّة. وأمّا الفصاحة فهي خلوص الكلام من التّعقيد. وأصله من الفصيح، وهو اللّبن الذي أُخِذت عنه الرّغوة»[٢].

وأما عن تشابك موضوعات البلاغة فيما بينها واختلاطها فهذا أمر بديهي، فنجده قد وضع باب (أحكام الخبر) الذي هو من علم المعاني في باب البيان مع التّشبيه والاستعارة والكناية والمجاز[٣].

والذي يبدو لي في هذا الموطن أن كلّ علم عندما يبنى يختلف حاله عند استقراره، فالنّاظر لكتاب سيبويه يجده متشابكاً متشعباً لا يقف على موضوع في باب واحد، يختلف عن المقتضب، والمقتضب يختلف عن أصول ابن السّراج، ومن جاء بعدهم هذّب الأبواب بشكل أفضل.

وهذه حال مسيرة الرَّازيّ فقد كان على صراط من سبقوه في هذا العلم -البلاغة-، بل استطاع أن يرتِّب بعض الموضوعات، ويبيّن بعض الأبواب، وهذا لا يُعد عيباً فيه وفيمن سبقه، ولا شكّ أنهم أصحاب فضل على هذه العلوم ومريديها، ولكن بسبب أوّل التّأليف يظهر الذي نراه، فجميع المحدثين عندما يؤلفون اليوم في علم البلاغة لابدّ لهم وأن يرجعوا إلى ينابيعها الصّافية، من الجاحظ إلى المبرَّد والجرجانيّ إمام هذا العلم وغيرهم.

ومع ذلك يمكن أن نعزوا سبب ضعف علم البلاغة في هذه المرحلة -إن وجد- أنها مرحلة ضعف فيها المعين الشّعريّ والأدبيّ بصفة عامّة، فانقطاع المصدر الغذائيّ عنه أدّى إلى ضعفه.

* * *

(١) ينظر: علم اللغة النّصي بين النّظريّة والتّطبيق: ١/ ٣١.
(٢) نهاية الإيجاز: ٨٩.
(٣) ينظر: نهاية الإيجاز: ١٤٨.

المبحث الثّاني
أسلوب الرَّازيّ

نظمهُ:

لقد صاغ الرَّازيّ كتابه بأساليب مختلفة تبعاً للمواضيع البلاغية، ويمكننا أن نقول تبعاً للمصدر، فكما ذكرنا أنّه اشتق مادّته البلاغية من كتب الجرجانيّ والزّمخشريّ والرّمانيّ وغيرهم، فأساليب هؤلاء متفاوتة في عسرها ويسرها، ولكن يبقى كتاب الرَّازيّ مقبولاً إلى حدٍّ كبير، ومفهوماً منذ القراءة الأوْلى للنّص على الأغلب[١].

كما أنّه أجاد في استعمال بعض الفنون البلاغية التّجميليّة في نظم كلامه، فقال في مقدمته: «الحمد لله المنزّه عن مشابهة المحدثات والممكنات، المقدّس عن مشاكلة المخلوقات والكائنات ... فهو العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقالُ ذرة في الأرضين والسماوات»[٢].

أما عن صياغته لموضوعات البلاغة هل قام الرَّازيّ بتقليد أسلوب الجرجانيّ؟

لنجب عن هذا السّؤال علينا أن نقارن بين نصّين في ذات الموضوع، الأوّل من كتاب الجرجانيّ، والثّاني من كتاب الفخر الرَّازيّ، في موضوع (التّقديم والتّأخير في النّفي) -على سبيل المثال-، قال الجرجانيّ: «إذا قلت: (ما فَعلتُ) كنت نفيت عنك فعلاً ثبت أنّه مفعولٌ، وإذا قلت: (مَا أنا فعلتُ) كنت نفيت عنك فعلاً ثبت أنّه مفعولٌ. تفسير ذلك: أنَّك إذا قلت: (مَا قلتُ هذا) كنت نفيت أن تكون القائل له، وكانت المناظرة في شيء ثبت أنَّه مقولٌ»[٣].

وقال الرَّازيّ: «النّفي إذا أدخلته على الفعل، فقلت: (مَا ضَربتُ زيداً) كنت نفيت فعلاً لم يثبت أنّه مفعولٌ، لأنّك نفيت عن نفسك ضرباً واقعاً بزيد. وذلك لا يقتضي كونه مضروباً، بل ربما لا يكون مضروباً أصلاً. وإذا أدخلته على الاسم كقولك: (مَا أنا ضَربتُ زيداً) لم تقله إلّا وزيد مضروب، وكان القصدُ أن تنفي أنت الضَّارب»[٤].

وفي رأيي أنّ كلام الرَّازيّ أوضح وأسرع إلى الفهم منه إلى كلام الجرجانيّ، مع أن أسلوب الجرجانيّ لم يكن عسيراً، وتبقى مسألة وضوح العبارة بين العالِمين مسألة نسبية تتفاوت بين متلق وآخر.

أثره فيمن جاء بعده

لقد كان لكتاب الرَّازيّ (نهاية الإيجاز) الأثر الواضح فيمن جاء بعده، فعند اطلاعنا

(١) ينظر: نهاية الإيجاز: ٦٨.
(٢) نهاية الإيجاز: ٧١.
(٣) دلائل الإعجاز: ١٠٨.
(٤) نهاية الإيجاز: ٣٥٠.

على أبي يعقوب محمد بن علي السّكاكيّ (ت٦٢٦هـ) صاحب كتاب (مفتاح العلوم) نرى التّأثير الواضح، كما أن السّكاكيّ أشار إلى فضل الرَّازيّ، ومدحه بأبيات بيّن فيها منزلته، ويقول فيها[١]:

اعلمن علماً يقينا
أن ربَّ العالمينا
لو قضى في عالمهم
خدمة للأعلمينا
أخدم الرَّازيّ فخراً
خدمة العبد بن سينا

وهذا يدلُّ على أنَّ السَّكاكيّ قد اطّلع على كتاب الرَّازيّ وتأثّر به، وإلّا لمَا أشار إليه في هذه الأبيات مادحاً له.

ومع ذلك نجد من العلماء من يرجع الفضل الأوّل في العمل البلاغي إلى السّكاكيّ، متجاوزاً الفخر الرَّازيّ ومن سبقه. قال ابن خلدون: «ثمّ لم تزل مسائل الفنّ تَكْمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخَّض السّكاكيّ زبدته، وهذّب مسائله، ورتّب أبوابه، على نحو ما ذكرناه آنفاً من التّرتيب، وألّف كتابه المسمّى بالمفتاح في النَّحو والتَّصريف والبيان»[٢].

فلا اعلم لماذا أغفل دور الفخر الرَّازيّ، ولم يشر إليه حتى، مع أن السَّكاكيّ قد ألّف كتابه (مفتاح العلوم) بعد اطّلاعه على كتاب الرَّازيّ واستفادته منه، ويتّضح هذا الأمر من خلال مقارنة كتاب السّكاكيّ مع كتاب الرَّازيّ.

ذكر الرَّازيّ في كتابه (نهاية الإيجاز) الفصل الأوّل: «الدّليل على كون القرآن معجزاً أنّ العرب تُحدُّوا إلى معارضته، ولم يأتوا بها ... ومن النّاس من جعل الإعجاز في أن أسلوبه مخالف لأسلوب الشّعر والخطب والرّسائل، ولاسيما في مقاطع الآيات مثل (يعلمون) و(يؤمنون)، ... ومنهم من جعل الإعجاز على اشتماله على الغيوب»[٣].

أما السّكاكيّ فأورد ذلك في وجوه إعجاز القرآن قائلاً: «فمنهم من يقول: وجه الإعجاز هو أنّه عزّ سلطانه صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الاتيان بمثله، ... ومنهم من يقول: وجه إعجاز القرآن وروده على أسلوب مبدأ مباين لأساليب كلامهم في خطبهم وأشعارهم، لاسيما في مطالع السّور ومقاطع الآي، مثل: (يؤمنون) (يعلمون)، ... ومنهم من يقول: وجه إعجازه سلامته عن التّناقض ... ومنهم من يقول: وجه الإعجاز الاشتمال على الغيوب، ... فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذّوق من أنّ وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة»[٤].

(١) ينظر: مرآة الجنان: ٤/ ٧.
(٢) مقدمة ابن خلدون: ١/ ٣٥٧.
(٣) نهاية الإعجاز: ٧٨.
(٤) مفتاح العلوم: ٦١٤.

فهذا كلام السّكاكيّ، والنّاظر إلى النّصين يجدهما متشابهين إلى حدٍّ كبير بل نجد أنّ الأمثلة قد تشابهت أيضاً نحو: (يؤمنون) و (يعلمون)، بل زاد الرَّازيّ حينما جعل فصلاً كاملاً تحدّث فيه عن: «في أنّ القرآن معجز، وأن الإعجاز في فصاحته»(١).

وعليه يمكن أن نثبت -مطمئنين- أن السّكاكيّ قد اطّلع على كتاب الرَّازيّ وتأثر به، ونقل عنه بعض أساليبه داخل مصنّفه.

شواهده:

جاء الاستشهاد عند الرَّازيّ تبعاً لقضيته وهدفه من تصنيف هذا الكتاب، ألا وهو: (إثبات إعجاز القرآن)، فقد أورد الرَّازيّ مائتين وخمس وعشرين آية من القرآن الكريم، استشهد بها في مواطن مختلفة من كتابه.

وجاء أول الاستشهاد في مقدمته، قال: «الرّابع: إنّا لمّا فاضلنا بين قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(٢)»(٣)، ثم استمر الاستشهاد بالقرآن الكريم من مقدمته إلى آخر صفحة من كتابه، جاء فيها: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾(٤)، أنّكم لا تعبدون ما أعبده بعد اليوم»(٥).

وكثرة الاستشهاد هذه تنبع من سبب تأليف الكتاب وهو إثبات إعجاز القرآن، وأن الإعجاز في فصاحته.

ثمّ جاء دور الحديث النّبويّ الشّريف، فاستشهد بعشرة أحاديث ابتدأ الاستشهاد بهم في التّشبيه، قال: «فأمّا في البيت الأوّل فلأنّه لما شاع وصف السُّنَّة بالبياض والإشراق، والبدعة بخلاف ذلك، كما قال النّبيّ ﷺ: «أتيتكم بالحنفيّة البيضاء ليلها كنهارها»(٦)»(٧).

مختتماً استشهاده بالحديث النّبويّ في (وجه الإعجاز في سورة الكوثر) قال: «الرّابعة: التّشبيه على ما لرسول الله -ﷺ- من اختصاص بالصّلاة، حيث جُعِلت لعينه قرَّة، استند الإمام الرَّازيّ في قوله هذا -على أغلب الظنّ- على ما يرويه ثابت عن أنس قال: قال رسول الله -ﷺ-: حُبِّب إليَّ النّساء والطّيب وجُعلت قرَّة عيني في الصّلاة(٨) وينحر البُدن الذي كانت همته فيه قوية -روي عنه- ﷺأنّه أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي

(١) نهاية الإيجاز: ٧٨.
(٢) سورة البقرة: من الآية: ٣٩.
(٣) نهاية الإيجاز: ٨١.
(٤) سورة الكافرون: من الآية: ٥.
(٥) نهاية الإيجاز: ٣٩٠.

(٦) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه، ولفظه: " قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْداً حَبَشِيّاً عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ". مسند الإمام أحمد: ٢٨/ ٣٦٧، وسنن ابن ماجة: ١/ ٢٩.
(٧) نهاية الإيجاز: ١٩٢.
(٨) أخرجه الإمام أحمد والنّسائي، ينظر: مسند أحمد: ١٩/ ٣٠٥، وسنن النّسائي: ٧/ ٦١.

جهل، في أنفه برة من ذهب»[١].

ثمّ جاء إلى الأمثال فوضع أحد عشر مثلاً في كتابه ابتدأ بهم في مقدمته: «وبين قولهم: (القتل أنفى للقتل)[٢]»[٣].

ثم جاء إلى الشّعر فجعله ثاني أكبر الاستشهاد -بعد القرآن الكريم-، وكأنه أخذ بقول أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب ﷺ حيث قال: «أيها النّاس، عليكم بديوانكم لا تضلّوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم»[٤].

فقد استعان الرَّازيّ بخمس وثمانين ومئة شاهدٍ شعريٍّ في كتابه، ذاكراً إيّاهم من الفصل الخامس من الجملة الأُولى: «... ثمّ إذا أبدلناها بمرادفتها لم نجد تلك الرّوعة، مثل أنّا لو قلنا في بيت البحتريّ[٥]:

بَخِلَتْ جُفُوْنُك أنْ تَكُونَ مُسَاعِدِي
شَحَّت جُفُونُكَ أنْ تَكُونَ مُوَافِقِي[٢]

حتى ذكر الاستشهاد الأخير منه: «فعلى هذا متى لم يكن في الكلام ما يدل على الوقوع كان الذي يفيد الظّاهر نفي الوقوع ونفي القربة منه.

وقول ذي الرّمّة[٦]:

إذا خَيَّر النَّأيُ المُحبِّين لَمْ يَكَدْ
رَسِيْسُ الهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ[٧]

أهم مصادره

١- **القرآن الكريم**: القرآن لغة: (قَرَأَ) الشّيء (قُرءاناً) بالضّم جَمعهُ وضمَّه، ومنه سُمي القرآن؛ لأنّه يجمع السُّور ويضمها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[٨] أي: قراءته[٩].

القرآن اصطلاحاً: «هو كلام الله المنزل على رسوله محمّد ﷺ المتعبد بتلاوته، المتحدي بأقصر سورة منه، والمنقول إلينا نقلاً متواتراً»[١٠].

لقد جعل الرَّازيّ من القرآن الكريم المصدر الأساسي؛ وذلك لأنّه عالج في كتابه (نهاية الإعجاز) إعجاز القرآن واثبات فصاحته، ومن ذلك أسلوب التّشبيه: «ومن هذا الباب قوله تعالى: {كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً}[١١]»[١٢].

٢-٣- **أسرار البلاغة، دلائل الإعجاز**: للإمام أبي بكر، عبد القاهر بن عبد الرّحمن الجرجانيّ (ت٤٧١هـ). لقد اعتمد الرَّازيّ على (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) اعتماداً كبيراً، ويذكر

(١) نهاية الإيجاز: ٣٧٨.
(٢) قول رُوي عن العرب. ينظر: الصّناعتين: ١٧٥، والإعجاز والإيجاز للثعالبيّ: ١٨، وسرّ الفصاحة: ٢٠٩.
(٣) نهاية الإيجاز: ٨١.
(٤) إرشاد السّاريّ لشرح صحيح البخاريّ: ٧/ ١٩٦.
(٥) ينظر: ديوان البحتريّ: ٣/ ١٨٣٨. وعجزه في الدّيوان: (وعَلِمْتَ مَا كَلَفِي، فكُنْتَ عَذُولي).
(٦) ينظر: ديوان ذي الرّمّة: ٤٤. وفي الدّيوان: إذا غيّر.
(٧) نهاية الإيجاز: ٣٧٤.
(٨) سورة القيامة: ١٧.
(٩) ينظر: الصِّحاح: مادة (قرأ) ١/ ٦٥.
(١٠) غاية المريد في علم التّجويد: ٩.
(١١) سورة الجمعة: آية: ٥.
(١٢) نهاية الإيجاز: ٢٠٣.

ذلك في مقدمته: «... إلى أن وفق الله الإمام، ... وصنّف في ذلك كتابين، لقّب أحدهما بدلائل الإعجاز وثانيهما بأسرار البلاغة ... ولما وفقني الله تعالى لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما»(١).

فهذه إشارة واضحة إلى اعتماده على مؤلفات الجرجانيّ كمصدر أساسي لمادته البلاغية في كتابه.

٤- **الحيوان:** لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وهو المصدر الرّابع الذي اعتمد عليه الرَّازيّ في بناء كتابه، وقد استشهد الرَّازيّ بالأمثلة التي أوردها الجاحظ كثيراً، سواء أكانت شعرية أم نثرية، فمن ذلك استشهاده عن جمع كنايتين في بيت واحد:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنّي
جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزُولُ الفَصَيْلِ (٢)

أما النّثريّة فمنها ما قال الفخر الرَّازيّ: «ومثاله قول الجاحظ: جنّبك الله الشّبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعروف نسباً، وبين الصّدق سبباً»(٣).

تبويبه

إنَّ المطالع لكتاب الرَّازيّ يجد اختلافاً في التَّبويب، فنرى لديه أبواباً يبدأ بها بتعريف الباب ومن ثمّ ينتقل إلى شرحه، ذلك نحو باب السَّجْع حيث قال: «الفصل الأوّل في السّجْع، قال علي بن عيسى: إنّه تكلّف التّقفية من غير تأدية الوزن. وأصله من سجع الحمامة»(٤). فنرى أنه بدأ بالتّعريف.

وتارة يبدأ بالتّقسيم، وذلك نحو باب التّجنيس، حيث قال: «في التّجنيس المتجانسان: إمّا أن يكونا مفردين، أو أحدهما مفرداً والآخر مركباً، أو كلاهما مركباً. فإن كانا مفردين...»(٥). فنرى أنّه أورد الأقسام ثم شرع بشرحها.

وتارة لا يبدأ بتعريف ولا أقسام، بل يبدأ بشرحٍ للموضوع منذ البداية، وذلك كباب التّشبيه، فإنّه لم يُرد له تعريفاً ولم يبيّن أقسامه، بل ابتدأ بالتّفصيل، قال: «الباب الرّابع في التّشبيه، وفيه سبعة فصول، الفصل الأوّل: في أنّ التّشبيه ليس من المجاز؛ لأنّه معنى من المعاني، وله حروف وألفاظ تدلّ عليه»(٦).

ولكن تبقى جميع هذه الأبواب متميزة بميزة الاستشهاد، والتي تميّز بها الرَّازيّ، حيث كثر لديه الاستشهاد وبيان الأمثلة؛ وذلك لزيادة التّوضيح، وكانت جلّ هذه الشّواهد

(١) نهاية الإيجاز: ٧٤.
(٢) ينظر: نهاية الإيجاز: ٢٧١. والبيت من الوافر وهو من دون نسبة في: الحيوان: ١/ ٣٨٤، و ديوان المعاني لأبي هلال العسكريّ: ١/ ٣٣، وشرح الحماسة للأصفهانيّ: ١١٥٥، ومفتاح العلوم: ٤٠٥.
(٣) نهاية الإيجاز: ٢٨٣، وينظر: الحيوان: ١/ ٣.
(٤) نهاية الإيجاز: ١٤٢.
(٥) نهاية الإيجاز: ١٢٦.
(٦) نهاية الإيجاز: ٢٢٢.

واضحة مفهومة.

بقي أن نورد أنّ الرَّازيّ لم يقسم موضوعات البلاغة حسب التّقسيم المعروف، فنرى أنّه أورد أحكام الخبر التي هي من عِلم المعاني مع عِلم البيان، فوضعها مع المجاز والتّشبيه والكناية والاستعارة[١].

فهذا مثال عن عدم ترتيب موضوعات البلاغة، ولم تظهر لديه التّقسيمات البلاغية بعلومها (البيان- البديع- المعاني).

المبحث الثّالث
الكناية أنموذجاً

إن مفهوم الكناية لدى الرَّازيّ -بشكل عام- لا يختلف عن سابقيه بشيء، مع وجود بعض الاختلافات اليسيرة في طريقة التّقسيم والعرض أو إطلاق التّعريف، وسنوضِّح أهمَّ ما جاء عن الكناية عند الرَّازيّ في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز).

* * *

تعريف الكناية:

الكناية لغةً: مصدر كنيت بكذا عن كذا إذا تركت التّصريح[٢] .

الكناية إصطلاحاً: نجد أن الـرَّازيّ يطلق تعريفه للكناية بقوله: «في حقيقة الكناية اعلم أنّ اللّفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلي غير معناها، فلا يخلو إما أن يكون معناها مقصوداً أيضاً ليكون دالاً على ذلك الغرض الأصلي، وإما ألا يكون كذلك. فالأوّل هو الكناية، أما الثّاني هو المجاز»[٣].

فنرى أن الفخر الرَّازيّ قد أوجز تعريف الكناية «اعلم أن اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلي غير معناها».

(١) ينظر: نهاية الإيجاز: ١٦٧.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ٥/ ١٣٩، والصّحاح: ٦/ ٢٤٧٧.

(٣) نهاية الإيجاز: ٢٧٠.

وقد سبقه الكثير من العلماء الذين عرَّفوا الكناية ممّن تأثر بهم الرَّازيّ ومنهم من لم يتأثر، وممّن عرّف الكناية الجاحظ قال: «صورة كلامية اختفى فيها اللّفظ الأصلي وظهر لفظ غيره»(١).

أما الجرجانيّ فنجده يقول: «والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه، مثال ذلك قولهم: (هو طويلُ النّجادِ) يريدون: طويل القامة، و(كثيرُ رَمادِ القِدرِ) بعنوان كثيراً القِرى»(٢).

والمتمعن لتعريف الرَّازيّ يجد أنّه قد تأثر بالجرجانيّ، ويرى مدى تطابق تعريف الجرجانيّ والرَّازيّ، بل إن الرَّازيّ قد أورد ذات المثال، قال: «ومثال الكناية قولهم: فلانٌ طويلُ النَّجادِ، كثيرُ الرَّمادِ»(٣). وهذا ما وقفنا عليه في تعريف الجرجانيّ السَّابق ذكره.

ثمّ جاء السَّكاكيّ ليطلق تعريفاً جديداً مختلفاً في الأسلوب موافقاً في المعنى، قال: «الكناية هي ترك التَّصريح بذكر الشَّيء إلى ذكر ما يلزمه؛ لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول: (فلانٌ طويلُ النَّجادِ) لينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طولُ القامةِ»(٤).

حتى وصل الأمر إلى المحدثين فعرّفوا الكناية بقولهم: «لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، ومع جواز إرادة ذلك المعنى»(٥).

والذي يتتبع الكناية بتعريفها منذ القِدم وإلى الآن يجدها تدور بذات المعنى، إلا أن أساليب تعريفها مختلفة؛ وهذا يعود لتعدد مفاهيم المجتمعات المختلفة عبر العصور.

أقسام الكناية:

أما من حيث التَّقسيم فقد انفرد الرَّازيّ في تقسيمه للكناية عمَّا سار عليه من سبقه، فقد قسّم الكناية على أساس الإثبات والنّفي في المعنى، قال: «فأمَّا الكناية في الإثبات فهي إذا ما حاولوا إثبات معنى من المعاني لشيء، فيتركون التّصريح بإثباته له، ويثبتونه لما به تعلّق كقوله:

إنَّ السَّماحَةَ وَالمُروءَةَ وَالنَّدى
في قُبَّةٍ ضُرِبَت عَلى ابنِ الحَشرَجِ»(٦)

هذا مثاله عن الإثبات، أما عن النّفي فقال: «ومثاله في جانب النَّفي قول من يصف امرأة بالعفَّة:

(١) البيان والتّبيين: ١/ ٢٦٣.
(٢) دلائل الإعجاز: ٦٦.
(٣) نهاية الإيجاز: ٢٧٠.
(٤) مفتاح العلوم: ٥١٢.
(٥) علم البيان: ١٥٢.
(٦) نهاية الإيجاز: ٢٧٠. والبيت من الكامل، وهو لزياد الأعجم. ينظر: شعر زياد الأعجم: ٤٩.

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتَهَا
إِذَا مَا بُيُوْتٌ بِالمَلَامَةِ حُلَّت»[١]

حتى إذا جاء السَّكاكيّ ووضع التَّقسيم المعروف الذي سار عليه من جاء بعده، وجعله المحدثون أساساً لانطلاق مصنفاتهم البلاغية. وهذا التَّقسيم كان على ثلاثة أصناف:

القسم الأوَّل: قال السَّكاكيُّ: القسم الأوَّل: في الكناية المطلوب بها نفس الموصوف. ويمثل لها قائلاً، مثل أن تقول: (جاءَ المِضيافُ) وتريد (زيداً) لعارض اختصاص للمضياف بزيد[٢].

القسم الثّاني: ثم أورد السّكاكيّ القسم الثّاني بقوله: «في الكناية المطلوب بها نفس الصّفة، مثل أن تقول: (فلانٌ طويلٌ نجاده) أو (طويلُ النَّجادِ)، متوصلاً به إلى طول قامته»[٣].

القسم الثَّالث: في الكناية المطلوب بها تخصيص الصّفة بالموصوف، وهي كقول زياد الأعجم:

إِنَّ السَّماحَةَ وَالمُروءَةَ وَالنَّدى
في قُبَّةٍ ضُرِبَت عَلى ابنِ الحَشرَجِ[٤]

فهذه هي أقسام الكناية لدى السّكاكيّ، والتي سار عليها المحدثون في تقسيمهم للكناية[٥].

الخاتمة

بعد قراءتي لكتاب: (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لفخر الدِّين الرَّازيّ، وتحليله وتقديم الدّراسة الوصفية عليه، يمكنني أن أسجل أهمّ ما استوقفني في رحلتي معه:

إن كتاب (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) يعدّ من الكتب البلاغية المتقدّمة بلا نزاع بين أهل العلم، ولا يختلف كثيراً عن كتب عبد القاهر الجرجانيّ، ولم أرَ في كلام أحدٍ من المتقدمين أو المتأخرين من يُقدِّم عليه كتاباً في هذا الفنّ سوى كتب عبد القاهر. بل نجد في أكثر من موطن من يذكره مع كتب عبد القاهر لحفظه أبواب البلاغة بشكلها الرَّتيب.

لقد أودع الرَّازيّ كتابهُ تعبيرات جمالية تنمُّ عن ذوق قوي أصيل، ولمحات فنيَّة تكشف عن عمق تفكيره وإحساسه في النُّصوص، فكانت تحليلاته رائعة، قريبة من روح العمل الأدبي.

إنّ من أهمِّ ضروب اللّذة التي أودعها الإمام في هذا الكتاب هو دفاعه عن القرآن الكريم بإثبات إعجازه وفصاحته، ممّا أثر على بروز الشَّاهد القرآني على غيره من الشَّواهد في الكتاب.

ومن جميل ما نجد في الكتاب من لؤلؤ أن جاءت مباحثه مرتبة، مجموعة، وإن كان يعود الفضل الأوَّل إلى الجرجانيّ في هذا التّرتيب إلا أنَّ الرَّازيّ جمع أصول هذا العلم وردَّ إليه فروعه،

---

(١) نهاية الإيجاز: ٢٧١. والبيت من الكامل، وهو للشنفرى الأزديّ. ينظر: ديوانه: ٣٢، وفي الدّيوان: "تَحُلُّ بمنجاةٍ من اللّوْم بيتها... إذا ما بُيُوت بالمذَمّة حُلّت".

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٥١٤.

(٣) مفتاح العلوم: ٥١٤.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٥١٧.

(٥) ينظر: علم البيان: ١٥٨.

ووضع له قواعده وأصوله بعبارةٍ سهلة خالية من التَّعقيد والمبالغة، فكانت طريقته وسطاً بين الطَّريقة القديمة في التّحليل وطريقة المتأخرين الذين غلب عليهم جفاف المنطق وصرامته وشدَّة التَّجريد والتَّعقيد.

* * *

المصادر والمراجع

١- إرشاد السّاريّ لشرح صحيح البخاريّ: القسطلانيّ أحمد أبو العباس، المطبعة الأميريّة- مصر، ط ٧، ١٣٢٣هـ.

٢- الإعجاز والإيجاز: الثعالبيّ عبد الملك أبو منصور، مكتبة القرآن- القاهرة، د-ط، د- ت.

٣- الإيضاح في علوم البلاغة: القزوينيّ محمد جلال الدِّين، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل- بيروت، ط ٣، د-ت.

٤- البلاغة تطور وتأريخ: د. شوقي ضيف، القاهرة- دار المعارف، ط ٩، د-ت.

٥- البيان والتَّبيين: الجاحظ عمرو بن بحر، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجيّ- القاهرة، ط ٥، ١٤٠٥هـ.

٦- التَّفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذَّهبيّ، د- ط، د- ت.

٧- الحيوان: الجاحظ عمرو بن بحر، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل- بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٨- دلائل الإعجاز: الجرجانيّ عبد القاهر بن محمد، تح: د. محمد التَّنيجيّ، بيروت- دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٥م.

٩- ديوان البحتريّ: عُني به حسن كامل، دار المعارف- القاهرة، ط٣، ١٩٦٣م.

١٠- ديوان الشنفرى عمرو بن مالك: تح: د.

أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي- بيروت، ط ٢، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

١١- ديوان المعاني: العسكريّ الحسن أبو هلال، دار الجيل- بيروت، د-ط، د-ت.

١٢- ديوان ذي الرّمّة: اعتنى به عبد الرَّحمن المصطاويّ، دار المعرفة- بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

١٣- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: الزَّمخشريّ محمود جار الله، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.

١٤- سر الفصاحة: الخفاجيّ عبد الله أبو محمد بن سنان، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

١٥- سنن ابن ماجة: القزوينيّ محمد أبو عبد الله بن ماجة، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، د- ط، د- ت.

١٦- سنن أبي داود: السَّجستانيّ سليمان بن الأشعث، تح: محمد محي الدِّين عبد الحميد، مكتبة المشكاة الإسلامية.

١٧- سنن النّسائي: النَّسائيّ أحمد بن شعيب، بيروت- دار المعرفة، ط ٥، ١٤٢٠هـ.

١٨- شرح ديوان الحماسة: الأصفهانيّ أحمد أبو علي، تح: غريد الشَّيخ، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٩- شعر زياد الأعجم: د. يوسف حسين بكار، دار المسيرة، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٢٠- الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهريّ إسماعيل بن حمّاد، تح: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٢١- الصِّناعتين: العسكريّ الحسن أبو هلال، تح: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة- بيروت، د- ط، ١٤١٩هـ.

٢٢- طبقات الشّافعية الكبرى: السُّبكيّ تاج الدين عبد الوهاب بن علي، تح: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحيّ، القاهرة- دار إحياء الكتب العربية، د-ط، د-ت.

٢٣- علم البيان: د. عبد العزيز عتيق، مصر- دار الآفاق العربية، ط١، ٢٠٠٤م.

٢٤- علم اللغة النّصي بين النّظريّة والتّطبيق: د. صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء- القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٢٥- غاية المريد في علم التّجويد: عطية قابل نصر، مكتبة القاهرة، ط ٧، د-ت.

٢٦- الكامل في اللغة والأدب: المبرد، تح: مبارك، القاهرة، د-ط، ١٩٣٦م.

٢٧- الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل: الزَّمخشريّ محمود بن عمرو، دار الكتاب العربي- بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

٢٨- مرآة الجنان وعبر اليقظان: المكيّ عبد الله بن أسعد، بيروت- دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧هـ.

٢٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل: الشَّيبانيّ أحمد أبو عبد الله، تح: أحمد محمد شاكر،

دار الحديث- القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
٣٠- معجم مقاييس اللغة: القزوينيّ أحمد بن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، د-ط، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
٣١- مفاتيح الغيب: الـرَّازيّ فخر الدِّين، بيروت - دار الفكر، ط ١، ١٩٨١م.
٣٢- مفتاح العلوم: السَّكاكيّ يوسف بن محمد، تح: د. عبد الحميد الهنداويّ، بيروت- دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
٣٣- مقدمة ابن خلدون: ابن خلدن عبد الرَّحمن بن محمد، د-ط، د-ت.
٣٤- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: الرَّازيّ فخر الدِّين، تح: د. بكري شيخ أمين، بيروت- دار القلم للملايين، ط١، ١٩٨٥م.
٣٥- الوافي بالوفيات: الصّفديّ صلاح الدِّين خليل بيك، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت- دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
٣٦-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان: ابن خلكان أحمد بن محمد، تح: د. احسان عباس، بيروت- دار صادر، د- ط، ١٩٦٨م.

* * *